

# القضايا الثقافية والفكرية في مؤلفات وكتابات بن يوسف بن خدة

أ. أحمد بن داود  
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

## الملخص:

إن المتأمل للمسار النضالي لبن يوسف بن خدة لا يجد بأنه لم يكن مجرد مناضل في صفوف الحركة الوطنية بل كان كذلك مثقفا وكاتباً أثري وأغنى المكتبة الوطنية بالعديد من المؤلفات والمقالات . لكن اهتمامه بالجانب الثقافي والفكري لم يحظ بنصيبه من الدراسة من قبل الباحثين.

اهتمام بن يوسف بن خدة بالقضايا الثقافية في كتاباته جعلته ينكب على دراسة السياسة الاستعمارية في الميدان الثقافي والتي تميزت بقيام الاستعمار بتحطيم البنية التحتية للمجتمع الجزائري في الميدان الثقافي (المدارس، المساجد، الزوايا....) وفرض نظام تعليمي لائكي طبقاً لقانون جول فيري الصادر في 13 فيفري 1883. لكن الشعب الجزائري قاوم هذه السياسة وذلك بمقاطعة المدرسة الكولونيالية وإرسال الأطفال إلى الكتاتيب القرآنية..

كتابات بن خدة لم تستثن المدرسة الجزائرية بعد الاستقلال حيث وجهت لها العديد من الانتقادات شملت نقاط ضعفها وعجزها عن تحقيق كل الأهداف التي سطرتهها. الكلمات المفتاحية : المدرسة الوطنية، الجزائر، السياسة الاستعمارية، بن يوسف بن خدة.

## Résumé :

Benyoussef Benkhedda n'était pas uniquement un militant de la cause nationale mais aussi un intellectuel et qui écrivain qui a enrichi la bibliothèque nationale avec plusieurs ouvrages et articles

sur les différents aspects de la révolution et du mouvement national. Mais ses écrits sur les questions culturelles n'ont pas fait l'objet d'études approfondies.

Benyoussef Benkhedda s'est penché dans ses écrits sur la politique coloniale dans le domaine culturelle qui s'est caractérisé par la destruction de l'infrastructure du pays dans ce domaine par le colon (écoles, 'Zaouia, 'mosqués..) et l'imposition d'un système éducatif laïque conformément à la loi de Jules Ferry du 13 Février 1883. Le peuple Algérien a résisté à cette politique par le boycott de l'école coloniale et l'envoi des enfants aux écoles coraniques. L'école algérienne dans l'Algérie indépendante n'a pas été épargnée par benkhedda, elle a fait l'objet de critiques sévères de sa part car, d'après lui, elle n'a pas arrivé à réaliser tous ses objectifs.

**Mots clés :** école nationale, Algérie, politique coloniale, Benyoussef Benkhedda.

## المقدمة:

تكتسي المسيرة النضالية لبن يوسف بن خدة أهمية كبيرة بالنسبة للتاريخ الجزائري وذلك نظرا لثراء وغنى تجربته السياسية والفكرية سواء في إطار نشاطه ضمن الحركة الوطنية أو كفاحه في إطار الثورة التحريرية، ثم كثرة الكتابات والآثار التي تركها لنا سواء كانت كتباً أو مقالات أو مقابلات في صحف.

لكن إذا كانت تجربته السياسية قد حُضت بنصيب وافر من الدراسة والتمحيص، فإن اهتماماته الفكرية والثقافية لم تحظ بنصيبها رغم أنها تعكس روحاً إبداعية عالية وقدرات فكرية معتبرة لدى الرجل من خلالها تناول بالدراسة مختلف جوانب الحركة الوطنية والثورة التحريرية مع تقييم ونقد لاذع أحيانا لمسارها، كما تناول مرحلة ما بعد الاستقلال ومختلف التطورات التي عرفتها مع نقد للتجربة التنموية والانحرافات السياسية التي عرفتها البلاد، ومراجعة بعض آرائه ومواقفه إزاء العديد من القضايا مع نقد ذاتي يعكس شجاعة الرجل الأدبية والفكرية وتحمله للمسؤولية التاريخية.

إن ذلك يدفعنا إلى طرح مجموعة من التساؤلات هي كالتالي: ما هي الآثار التي تركها السيد بن يوسف بن خدة؟ وما هي طبيعة اهتماماته الفكرية والثقافية؟ وكيف عالج القضية الثقافية بمختلف عناصرها؟

الإجابة عن هذه التساؤلات يتطلب منا أولاً التعرف على المسار التعليمي لبن يوسف بن خدة نظراً لدوره الهام في نضج تجربته النضالية.

## I- المسار التعليمي لبن يوسف بن خدة:

ولد بن يوسف بن خدة بالبرواقية، ولاية المدية، في 23 فبراير 1923، درس بالمدرسة القرآنية أولاً حيث تلقى المبادئ الأولى للكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم ثم انتقل إلى المدرسة الفرنسية<sup>(1)</sup> وتدرج إلى غاية التحاقه بمدرسة ابن رشد الثانوية<sup>(2)</sup> حيث تعرف على بعض رواد الحركة الوطنية الجزائرية كالأمين دباغين الذي كان يدرس بشعبة الرياضيات، وسعد دحلب، وعبان رمضان، وعلي بومنجل، وامحمد يزيد<sup>(3)</sup>.

بعد نجاحه في البكالوريا التحق بكلية الطب والصيدلة بمدينة الجزائر سنة 1943، وحصل، بعد إتمام دراسته، على دبلوم الصيدلة سنة 1951، وهذا ما جعله واحداً من عناصر النخبة الجزائرية المثقفة القلائل آنذاك<sup>(4)</sup>.

إن المسار التعليمي لبن يوسف بن خدة كان له أثر كبير في ارتفاع وعيه السياسي، ففي ثانوية البليدة انضم إلى حزب الشعب سنة 1942، وساهم إلى جانب رفقائه في تنظيم حملة تمرد ضد التجنيد الإجباري اقتناعاً منه بأنه ليس من العدل الزج بالشعب الجزائري في أتون حرب لا ناقة ولا جمل له فيها<sup>(5)</sup>، وهذا ما كانت نتيجته إلقاء القبض عليه<sup>(6)</sup>. وسجنه لمدة ثمانية أشهر.

وفي جامعة الجزائر نضجت تجربته النضالية وتبلورت أفكاره وقناعاته السياسية وذلك بفعل الاحتكاك بالتيارات السياسية التي كان يزخر بها الحرم الجامعي ونشاط الحركة الطلابية المتزايد آنذاك.

## II- الاهتمامات الثقافية والفكرية لبن خدة:

1- مؤلفات وكتابات بن خدة: لقد أثرى بن خدة المكتبة الجزائرية بالعديد من المؤلفات ذات القيمة الفكرية والتاريخية وخاصة انطلاقا من ثمانينات القرن الماضي وذلك بعد رفع الإقامة الجبرية عنه سنة 1980 ومن أهم هذه المؤلفات نذكر:

- جذور أول نوفمبر 1954 سنة 1986.

- الجزائر غداة الاستقلال، أزمة 1962، سنة 1997 وذلك ردا على ما ورد على لسان البعض في حصة "الجزائر في إيفيان" التي بثها التلفزيون الجزائري في حلقات سنة 1992<sup>(7)</sup>.

- اتفاقيات إيفيان 1962

- عبان - بن مهيدي ومساهمتهما في الثورة الجزائرية سنة 2000

- الجزائر عاصمة المقاومة 1956-1957، سنة 2002<sup>(8)</sup>.

إضافة الى كتابين كانا تحت الطبع من بينهما كتاب "خروج لجنة التنسيق والتنفيذ من الجزائر سنة 1957"<sup>(9)</sup>.

إلى جانب ذلك أدلى بن خدة بمجموعة كبيرة من الشهادات وتفاعل مع الواقع السياسي لتسعينات القرن الماضي وأصدر العديد من البيانات خاصة بعد أن أسس حزب الأمة سنة 1990 مع بعض رفاقه القدامى<sup>(10)</sup>.

2- اهتماماته الثقافية والفكرية: نالت القضايا الثقافية والفكرية للمجتمع الجزائري نصيبا هاما من تفكير ومؤلفات بن خدة حيث أنه تفاعل مع ما كانت تعرفه البلاد من تطورات ونقاشات حادة أحيانا حول مسائلهم الدائرة الثقافية خلال الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي ومن بينها نذكر:

أ- السياسة الاستعمارية في الميدان الثقافي: في كتابه "جذور أول نوفمبر 1954 اعتبر بن خدة السياسة الاستعمارية في الميدان الثقافي بمثابة عدوان "تجسد في انتهاج المستعمر سياسة تهدف إلى مسخ شخصية الجزائريين بحرمانهم من لغتهم الوطنية ودينهم باعتبار أن كليهما يمثل عقبة كأداء تحول دون نجاح المشاريع الرامية إلى فرنسة الجزائريين"<sup>(11)</sup>.

ولتجريد الإنسان الجزائري من قيمه الدينية والثقافية لجأت الإدارة الاستعمارية، حسب الكاتب، إلى تدمير "جميع ما وجدته من مراكز ثقافية، ومعاهد وزوايا ومدارس واستحوذت على أملاك الأوقاف التي كانت مصدر تمويل لتلك المؤسسات..."<sup>(12)</sup>. وإطلاق العنان للكنيسة للقيام بالنشاط التبشيري بفرض تمسيح الجزائريين و"إعادة الجزائر إلى حظيرة الديار المسيحية مثلما كانت في سالف العهود السابقة لفتح الإسلامي لشمال إفريقيا..."<sup>(13)</sup>.

ب- قضية التعليم في الجزائر: في هذا المجال عالج بن خدة مختلف جوانب السياسة الاستعمارية في مجال التعليم إضافة إلى وضع التعليم بعد الاستقلال مع توجيه نقد شديد إلى النظام التعليمي السائد في البلاد.

#### • السياسة الفرنسية في ميدان التعليم:

بالنسبة للسياسة الاستعمارية في ميدان التعليم فقد تميزت، حسب بن خدة بالروح العلمانية، وهذا طبعا وفقا لما جاء في قانون جول فيري الصادر في 13 فبراير 1883، إذ يقول في هذا الصدد: "كان التعليم العمومي يقدم باللغة الفرنسية وفق نظام علماني لا يعير أدنى اهتمام لما يمت بصلة إلى الحقائق الجزائرية وتاريخها وثقافتها"<sup>(14)</sup>.

إضافة إلى ذلك فهذا التعليم المقدم للجزائريين في إطار "مدارس الأهالي" تعليم هزيل ويعطى "بجرعات شحيحة لا تشفي الغليل"<sup>(15)</sup>، فضلا عن تشويهه للتاريخ الجزائري، إذ تردد كتب التاريخ أن "أسلافنا هم الغاليون القدامى"<sup>(16)</sup>.

لقد كان من نتائج هذه السياسة هو الانتشار الواسع للأمية وخاصة بني صفوف المهاجرين "الذين كانوا في غالبيتهم عمالا أميين"<sup>(17)</sup>، كذلك خلق فئة من المثقفين الاندماجين الذين اعتبرهم الكاتب بمثابة ضحايا لهذه السياسة، إذ يقول في هذا الشأن: "كان بعض الجزائريين المتخرجين من الجامعات الفرنسية في مقدمة ضحايا الاستعمار

الثقافي مما جعلهم يقتنعون بأن لا خلاص لهم إلا بالحصول على المواطنة الفرنسية...بل ذهب بعض ممثلهم البارزين إلى حد التنكر للوطن الجزائري وقيمه الثقافية والوطنية"<sup>(18)</sup>.

لكن هذه السياسة ولدت مقاومة شديدة لدى الشعب الجزائري تدرج في إطار المقاومة الثقافية تمثلت أولاً في التميز والانكفاء على الذات حيث "لجأ الإنسان الجزائري إلى أعماق ذاته معتصماً بدينه وتقاليدهِ"<sup>(19)</sup>. ثم مقاطعة التعليم الفرنسي و"الامتناع عن إرسال أبنائه إلى المدرسة الفرنسية التي كان يعتبرها أداة لمحق شخصيته وقيمه الأخلاقية والروحية"<sup>(20)</sup>.

### • نظام التعليم في الجزائر بعد الاستقلال:

في تناوله بالدراسة لوضع التعليم بالجزائر، في هذه الفترة، يشيد الكاتب بالتطور الحاصل من حيث عدد الأطفال المتدرسين لكن ينتقد النتائج المحصل عليها من حيث الكيف إذ يقول: " ونظام التعليم الذي وإن وصل إلى تحقيق نتائج من حيث الكم، إذ بلغ عدد التلاميذ خمسة ملايين...لكن لم يصل إلى تكوين المواطن الواعي بمسؤوليته القادر على مواجهة المهام العظيمة التي يتطلبها بناء دولة حديثة..."<sup>(21)</sup>.

وفي موضع آخر ينتقد مرجعيات المنظومة التربوية الجزائرية وبشدة إذ يقول: "والحكم... يفرض على أطفالنا منظومة تربوية وفق اختياره ويخضعنا إلى إيديولوجية معادية للقيم الأخلاقية والروحية للإسلام..."<sup>(22)</sup>.

ج- قضية الغزو الثقافي وأصالة الثورة: يعبر بن خدة في مواقف عديدة من كتاباته عن فخره واعتزازه بالثورة الجزائرية وأصالتها لأنها استمدت مبادئها وفلسفتها من ثقافتها الوطنية وانتمائها للحضارة العربية الإسلامية، فهي حسبه: "ثورة أصيلة ورشيده لأنها لم تقلد أو بالأحرى لم تنقل تجارب الآخرين إلى صميم الواقع الجزائري، ولم تكن تعتمد في جميع مراحل نضالها إلا على الله ثم على قوتها الذاتية، فكانت تركز دائماً على العنصر الوطني كعامل أساسي ورئيسي لتحقيق النصر..."<sup>(23)</sup>.

هذا التركيز على العنصر الوطني واعتمادها على قوتها الذاتية أعطاها استقلالية تامة في أخذ قراراتها المصيرية دون الرجوع إلى أي جهة أو سلطة أخرى غير سلطتها الوطنية وهذا ما جعل الكاتب يطرح تساؤلاً جوهرياً في هذا المجال حيث

يقول: "إذا كانت أصالة أية ثورة تقاس بمدى استقلاليتها السياسية، فهل هنالك في العالم ثورة أكثر أصالة من الثورة الجزائرية؟"<sup>(24)</sup>.

لكن هذه الأصالة والاستقلالية التي حافظت عليها الثورة منذ قيامها إلى غاية مفاوضات إيفيان ثم الاستقلال أصبحت مهددة بفعل الانحرافات وأخطاء التجربة التنموية التي عرفتها البلاد والتي اتسمت، حسب الكاتب، بالعشوائية أحيانا وكرست بذلك سياسة التبعية للغرب، ويقول في هذا الصدد: "لم يكن من عملنا سوى تقليد الشرق أو الغرب، فمن الأول اقتبسنا أساليب الحكم الاستبدادي والحزب الواحد ومن الثاني أخذنا نمط حياة المجتمع الاستهلاكي، وهما فرعان من جذع واحد ألا وهو الجذع الأوروبي الذي يرجح الجانب المادي على الجانب الروحي"<sup>(25)</sup>.

إن تأثر التجربة التنموية الجزائرية بما هو حاصل في الشرق والغرب اعتبره الكاتب نوعا من الغزو الثقافي أو الفكري الذي لا يخص الجزائر فقط بل كذلك دول المغرب العربي ودول العالم الثالث التي ما تزال، حسبه تزرع "تحت نير الغزو الفكري الغربي في أخبث أشكاله الثقافية ووسائله التكنولوجية الهائلة والأكثر تطورا..."<sup>(26)</sup>. ولهذا فلا بد من محاربة هذا الغزو والابتعاد عن كل ما هو دخيل على المجتمع الجزائري<sup>(27)</sup>. لأن ذلك من شأنه حسب بن خدة انقاد "الجزائر من عبودية جديدة الشكل أو بعبارة أوضح من استعمار جديد ألا وهو الغزو الفكري..."<sup>(28)</sup>.

## الخاتمة:

خلاصة القول أن بن يوسف بن خدة لم يكن مجرد رجل سياسة ونضال بل كان كذلك مفكرا ومبدعا أغنت كتاباته المكتبة الجزائرية ولهذا يمكننا أن نعتبر نضج وعيه السياسي وكفائته في تسيير مختلف هياكل الثورة ومؤسساتها كان ناتجا عن اكتسابه لقدرات فكرية وأدبية عالية خلال مساره التعليمي مكنته من المساهمة في قيادة الثورة وإيصالها إلى بر الأمان من أقصر الطرق وبأقل الخسائر.

إضافة إلى ذلك فقد أكمل مساره النضالي بعد أزمة صيف 1962 وانسحابه من الساحة السياسية بالتفرغ، ابتداء من ثمانينات القرن الماضي، إلى الكتابة

والتأليف وإمعان النظر والتفكير في مختلف جوانب العمل الثوري الذي قاد البلاد إلى الاستقلال، بما في ذلك القضايا الثقافية والفكرية التي خصص لها حيزا هاما في مجال تفكيره.

### الهوامش:

(1) - بن يوسف بن خدة، جذور أول نوفمبر 1954، ط2، دار الشاطبية للطباعة والنشر، الجزائر 2012، ص 601.

(2) - وذلك على خلاف رئيس الحزب ميصالي الحاج الذي لم يتعد مستواه التعليم الابتدائي، ينظر مذكرات ميصالي الحاج 1898-1938، ترجمة محمد المعراجي، المؤسسة الوطنية للفنون الطبعية، الجزائر، 2007، ص 59.

(3) - جذور أول نوفمبر 1954، مصدر سابق، ص 60.

(4) - تقديم محفوظ قداش، جذور أول نوفمبر 1954، مصدر سابق، ص 7.

(5) - مقدمة محفوظ قداش، جذور أول نوفمبر 1954، مصدر سابق، ص 8.

(6) - Charles Robert Ageron، Histoire de l'Algérie contemporaine، de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954، T2، P.U.F، Paris، 1979، p 569

(7) - رابح بونسي، منهج التعامل مع الشهادات والمذكرات عند كتابة تاريخ الثورة الجزائرية، شهادات بن يوسف بن خدة نموذجا، مجلة عصور، عدد 6-7، جوان-ديسمبر 2005، ص 32.

(8) - نفسه.

(9) - الرئيس بن يوسف بن خدة، شهادات ومواقف، شركة دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 394.

(10) - رابح لوني، المرجع السابق، ص 32.

(11) - جذور أول نوفمبر 1954، المصدر السابق، ص 52.

(12) - نفسه، ص 51.

(13) - نفسه، ص 52.

(14) - نفسه، ص 53

(15) - نفسه

(16) - نفسه

(17) - Benyoucef Ben Khedda، l'Algérie à l'indépendance، la crise de 1962، Edition Dahlab، Alger، 1997، p 93

(18) - نفسه

(19) - نفسه، ص 52.

(20) - نفسه، ص 62.

(21) - الرئيس بن يوسف بن خدة، شهادات ومواقف، ط1، شركة دار الأمة، ط1، الجزائر، 2007، ص ص 295-294.

(22) - الرئيس بن يوسف بن خدة، شهادات ومواقف، مصدر سابق، ص 291.

(23) - الرئيس بن يوسف بن خدة، شهادات ومواقف، مصدر سابق، ص 134.

(24) - Benyoucef Ben Kheda، la fin de la guerre d'Algérie، Op.cit، p 12.

(25) - الرئيس بن يوسف بن خدة، شهادات ومواقف، مصدر سابق، ص 167.

(26) - نفسه، ص 252.

(27) - نفسه، ص 147.

(28) - نفسه، ص 168.